الفصل الثانى

نظرات فى قول الله تعالى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الجوَارِ الكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أمينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير : ١٥ - ٢٢) .

فى هذا الفصل :

- الخنس ، والجوار الكنس ، وعسعسة الليل ، والصبح إذا تنفس .
- المقسم عليه هو رسول الوحى جبريل عليه السلام .
- وصف جبريل بخمس صفات زكية رفيعة .
- الاستشهاد باختيار الصحابة والتابعين .
- لله أن يقسم بما يشاء ، وليس لنا أن نقسم إلا بالله .
- لماذا اختار أن يكون التفسير بالنجوم ، ورد التفسير بالحيوانات ؟ وما أدلة ترجيحه لذلك ؟ ترجيحه لعشرة أدلة ارتآها .
- المقسم عليه هو القرآن الكريم كلام الله تعالى .
- الرسول هنا هو جبريل عليه السلام .

-

obeikan.com

● القسم بالخنس والكنس وعسعسة الليل ، وتنفس النهار :

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۞ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١) .

أقسم سبحانه بالنجوم فى أحوالها الثلاثة : من طلوعها ، وجريانها ، وغروبها ، هذا قول على ، وابن عباس ، وعامة المفسرين ، وهو الصواب (٢) .

والخنس جمع خانس ، والخنس الانقباض والاختفاء ، ومنه سمى الشيطان خناسًا ، لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه ، ومنه قول أبى هريرة فانخنست (٣) .

والكنس جمع كانس ، وهو الداخل فى كناسه ، أى فى بيته ، ومنه تكنست المرأة إذا دخلت فى هودجها ، ومنه كنست الظباء ، إذا أوت إلى أكناسها .

والجوارى جمع جارية ، كغاشية وغواش . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل . وهذا قول **مقاتل وعطاء** وقتادة وغيرهم .

قالوا : الكواكب تخنس بالنهار ، فتختفى ولا ترى ، وتكنس فى وقت

---

(١) التكوير : ١٥ - ١٨

(٢) لله سبحانه أن يقسم بما يشاء - لأنه الخالق المهيمن - على ما يشاء ، وليس لنا أن نقسم إلا بالله .

(٣) روى أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ ، لقيه فى بعض طرق المدينة وهو جنب ، فانخنس منه فذهب فاغتسل ، ثم جاءه ، فقال له : « أين كنت يا أبا هريرة » ؟ فقال : كنت جنبًا ، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة ، فقال ﷺ : « سبحان الله ، إن المؤمن لا ينجس » .

غروبها . ومعنى تخنس - على هذا القول - تتأخر عن البصر ، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها .

وفيه قول آخر ، وهو أن خنوسها رجوعها ، وهى حركتها الشرقية ، فإن لها حركتين : حركة بفعلها ، وحركة بنفسها ، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة .

وعلى هذا : فهو قسم بنوع من الكواكب ، وهى السيارة ، وهذا قول الفراء .

وفيه قول ثالث : وهو أن خنوسها وكنوسها اختفاؤها وقت مغيبها ، فتغيب فى مواضعها التى تغيب فيها ، وهذا قول الزجاج .

* ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء ، وحال جريان ، وحال غروب - أقسم سبحانه بها فى أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على حال ظهورها لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور . ولا يقال لما لايزال مختفيًا : أنه قد خنس ، فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحًا ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع ، فالطلوع أول جريانها.

فتضمن القسم **طلوعها ، وغروبها ، وجريانها ، واختفاءها** ، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته .

* *

● **رد التفسير بالحيوانات** :

وليس قول من فسرها بالظباء ، وبقر الوحش ، بالظاهر لوجوه :

(أحدها) : أن هذه الأحوال فى الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة .

(الثانى) : اشتراك أهل الأرض فى معرفته بالمشاهدة والعيان .

(الثالث) : أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفى فيها عن العيان مطلقًا ، بل لا تزال ظاهرة فى الفلوات .

(الرابع) : إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا ليس خنوسها من الاختفاء ، قال الواحدى : هو من الخنس فى الأنف ، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة ، والبقر والظباء أنوفهن خنس والبقرة خنساء ، والظبى أخنس . ومنه سميت الخنساء [1] لخنس أنفها ، ومعلوم أن هذا أمر خفى يحتاج إلى تأمل ، وأكثر الناس لا يعرفونه ، وآيات الرب التى يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك فى معرفتها الخلائق ، وليس الخنس فى أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء ، والاعتدال فى أنف ابن آدم ، فالآية فيه أظهر .

(الخامس) : أن كنوسها فى أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات فى بيته الذى يأوى فيه ولا أظهر منه ، حتى يتعين القسم .

(السادس) : أنه لو كان جمعًا للظبى لقال الخنس - بالتسكين - لأنه جمع أخنس ، فهو كأحمر وحمر ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضًا ، كحمراء وحمر فلما جاء جمعه على فعل - بالتشديد - استحال أن يكون جمعًا لواحد من الظباء والبقر ؛ وتعين أن يكون جمعًا لخانس ، كشاهد وشُهّد ، وصائم وصوم ، وقائم وقوم ، ونظائرها .

(السابع) : أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان ، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته ، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه ، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها ، وهى النفس الإنسانية ، ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله ، وهو القرآن ، ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهى السماء ، وشمسها وقمرها ، ونجومها . ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه ، وهو الليالى العشر .

وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه فى العموم ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴾ [3] فى قراءة رسول الله ﷺ ونحو ذلك .

---

(١) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الصحابية رضى الله عنها .

(٢) الحاقة : ٣٨ ، ٣٩ (٣) النجم : ٤٥

(والثامن) : أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنهما النجوم ، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح فى قسم واحد ، وبهذا احتج **أبو إسحاق** على أنها النجوم . فقال : هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش .

(التاسع) : أنه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر ما يدل عليه ، كما أنه لما أراد بالجوارى السفن ، قال سبحانه : ﴿ وَلَهُ الجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِى البَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾ (١) ، وهنا ليس فى للفظ ولا فى السياق ما يدل على أنها البقر والظباء ، وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التى ذكرناه وغيرها .

(العاشر) : أن الارتباط الذى بين النجوم التى هى هداية للسالكين ورجوم للشياطين ، وبين المقسم عليه - وهو القرآن ، الذى هو هدى للعالمين ، وزينة للقلوب ، وداحض لشبهات الشيطان - أعظم من الارتباط الذى بين البقر والظباء والقرآن ، والله أعلم

❊ ❊

● **عسعسة الليل** :

واختلف فى عسعسة الليل ، هل هى إقباله أم إدباره (٢) .

فالأكثرون على أن عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر . هذا قول على ، وابن عباس **وأصحابه** قال الحسن : أقبل بظلامه ، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

فمن رجح **الإقبال** قال :

أقسم الله سبحانه وتعالى بإقبال الليل وإقبال النهار ، فقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ مقابل لليل إذا عسعس . قالوا : ولهذا أقسم الله بـ ﴿ اللَّيْلِ إِذا

---

(١) الرحمن : ٢٤

(٢) لفظ عسعس من الأضداد ، راجع كتابنا « المشترك اللفظى » نشر مكتبة وهبة .

يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [1] ، وبالضحى . قالوا : فغشيان الليل نظير عسعسته ، وتجلى النهار نظير تنفس الصبح ، إذ هو مبدؤه ، وأوله .

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ [2] ، فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح ، وذلك نظير عسعسة الليل ، وتنفس الصبح ، قالوا : والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، وإقبال النهار ، فإنه عقيبه من غير فصل ، فهذا أعظم فى الدلالة والعبرة ، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار ، فإنه لم يعرف القسم فى القرآن بهما ، ولأن بينهما زمنًا طويلاً . فالآية فى انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ . فذكر سبحانه حالة ضعف هذا ، وإدباره ، وحالة قوة هذا وتنفسه ، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكلما تنفس هرب الليل ، وأدبر بين يديه . وهذا هو القول ، والله أعلم .

* *

● المقسم عليه :

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن ، وأخبر أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا جبريل عليه السلام قطعًا ، لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به .

وأما الرسول الكريم فى الحاقة فهو : محمد ﷺ ؛ لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله . فقال سبحانه : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] ، فأضافه إلى الرسول الملكى [4] تارة ، وإلى البشرى [5] تارة ، وإضافته إلى

---

(١) الليل : ١ ، ٢ (٢) المدثر : ٣٢ - ٣٤ (٣) الحاقة : ٤١ ، ٤٢

(٤) هو جبريل عليه السلام (٥) هو محمد عليه الصلاة والسلام

كل واحد من الرسولين **إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء** من عنده ، وإلا تناقضت النسبتان .

ولفظ الرسول يدل على ذلك ، فإن الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح فى أنه كلام من أرسل جبريل عليه السلام ، ومحمدًا ﷺ ، وأن كلا منهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغًا ، وقول الله الذى تكلم به حقًا .

فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلمًا بالقرآن وهو كلامه حقًا فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى ، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله ، ومحمد ﷺ سمعه من جبريل .

* ووصف رسوله الملكى فى هذه السورة بأنه كريم ، قوى ، مكين عند الرب تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين [1] . .

* * *

(١) خمس صفات تتضمن التزكية والرفعة .